

مزلق التفكير

كُتبت بعد تصفح كتاب « أميل » لجان جاك روسو

لجان ميار

من البديهيات ان محاربة المرض لا تستلزم اعدام المريض . بل على العُضد من ذلك ، ان الحرص على حياة المريض وسلامته هو الداعي الاول لمحاربة المرض والسعي في استئصال شأفته . وقد اخطأ كثيرون من المفكرين هذا الخطأ القاصح . ومنهم جان جاك روسو ، احد اساطين الادب في القرن الثامن عشر ، وكان نداءً ثولتير وديدرو ولافري وهلفتيوس . وزاد عليهم تفكيره الخاس ، الذي يخلص في العبارة الشهيرة (عودوا الى الطبيعة)

هذا هو نداء روسو الذي هز به العالم هزاً عنيفاً . رمى به الى محاربة المدنية والهيئة الاجتماعية والعلم والفن . زاعماً ان اضرار العلم زبي على فوائده . فهو يؤثر الجهل على العلم ، والقنطرة على العقل ، والمصلحة على الحضارة ، والحيوانية على الانسانية . على انه فات روسو ، ومن ثمما نحو روسو ، ان الحضارة والعلم والفن والارتقاء هي من الطبيعة التي يدعونا اليها قائلاً (عودوا الى الطبيعة) زاعماً ان تلك الاشياء منافية للطبيعة فالحضارة والارتقاء والهيئة الاجتماعية والعلم والفنون والسياسة والصحف والجميات والاندية وما شاكل ذلك ، هي فروع شجرة الطبيعة . كانت فيها ، اولاً ، بالقوة ، فصارت بعد ذلك بالفعل . فهي في الطبيعة كالنطق والتوليد في الطفل او في الجنين . فان الجنين ، بل والوليد ايضاً ، لا يرى ، ولا يبي ، ولا ينطق ، ولا يمشي ، ولا يلد . ولكن هذه القوي ، وغيرها من الاوضاع البيولوجية والانسانية ، هي فيه بالقوة ، متى كان جنيناً في ظلمات الارحام . فتبدو فيه بالفعل بعد ولادته ، متى تحل زماها ولائمها الاحوال . فليست صفة النطق مثلاً ، منافية للطبيعة ، بداعي ان الوليد لم يكن ينطق ثم نطق . ولا يجوز لنا ان نقول للناطقين (عودوا الى الطبيعة) بمعنى (اوسدوا افواهكم ، وكفوا عن الكلام) لان النطق طبيعي في الانسان وان تأخر ظهوره . كذلك النسل طبيعي ، والامر بالتبخل مخالف للطبيعة . كذلك العلم والفن والابداع والحضارة والارتقاء ، وأمثال هذه المعاني ، هي طبيعية فينا ، اولاً بالقوة ثم بالفعل . فكانت اولاً

كامنة في الانسانية كون الحرارة في أوراق النبات واخشابه . فبرزت الى حيز الوجود لما تسفت لها الاحوال الملائمة المعروفة في النعم والصناعة
 فهل يجوز لك ان تقول للاخشاب عودي اوراقاً خضراء ، وللرجال عودوا اطفالاً واجنّة ؟
 كلاً . ومحارب الطبيعة مغلوب . فلاثمرة تعود زهرة . ولا شجرة تعود بذرة ، ولا حيوان يعود
 جنيناً ، ولا نهر يرجع الى مصدره ، ولا ابن الخمين يرجع الى سن العشرين او ما دون العشرين .
 تلك امور ضد الطبيعة

الثرد الانساني وليدأ ، لا يمحس النطق ولا انغاه ولا الرقس ولا الشعر ولا المقايضة ولا الادارة
 ولكن لانكير بان النطق والفن والتمطق والمهندسة والسياسة والحب والابداع هي مكونات صدره
 وكامنة في نفسه طبعاً . فلا يمكن انتزاعها منه الا باعدام حياته . وذلك ضد الطبع في خط مستقيم
 فالرجوع من العلم الى الجهل ، ومن الحضارة الى المهجبة ، ومن الفن والابداع الى الحيوانية والجمود ،
 ليست عوداً الى الطبيعة ، بل شذوذ عن الطبع . فلاما راقية ترتد بحكم الطبع همجية او متوحشة
 لان التوحش والمهجبة والبدولة في الامم الطوار . كالطفولة والصبوة والشباب والكهولة في الافراد
 فهل يحرم القتل اذا صار شاباً ؟ كلاً . فلماذا تجرم الامة ؟
 اذا ارتقت من طور البدولة الى طور الحضارة والارتقاء ؟ فنداء روسو « بالعود الى الطبيعة »
 هو من قبيل تهافت الفلاسفة

هو من قبيل تهافت الفلاسفة

اذا كان العلم والمدنية والارتقاء قد اضررت فهي ايضاً قد تسعت . ولا يجوز القول بانها
 بداعي اضرارها . فان النار تحرق وتدمر ، ولكنها ايضاً نافعة في الطهي والخبز والصناعة ، فلا
 يقول احد باحتماد النيران . كذلك القطارات الحديدية والسيارات وغيرها من وسائل النقل الحديث
 قد تضر . ولكن ما قال احد باستئصالها بداعي الاضرار الا تولستوي الروسي ، فانه اقتنى اثر
 روسو فقال بان هذه الاشياء قسرة وتوحش ، فيلزم العدول عنها الى الحال القطرية

ولكن قول تولستوي كقول روسو ، هو من قبيل تهافت التسلافة . ولا يلزم عن اضرار
 الآلات الحادة كالسيف والسكين وشووها من مبضع ومشط ، الفناء بداعي اضرارها . كذلك
 لا يجوز العدول عن المدنية والعلم والفن والابداع بداعي انها تضر احياناً

على ان الارتقاء يسير في خط لولبي . واخط اللولبي معروف . فيظهر كأنه التف رجوعاً الى
 حيث كان . على انه لم يعد في سطح واحد ، بل في سطح اعلى . ومن ظن خلاف ذلك كان واهماً
 كذلك النهر يجري على سطح الارض في خط كثير التعارج . وقد يتحول في شمس مجراه الاجالي
 كنهر الكنج مثلا . فانه يصدر من قلب حماليا فيجري شمالاً ، ثم يعطف شرقاً ، فغرباً جنوباً .
 على انه في كل من تلك الاقسام يتعرج كثيراً . وليس ثمة نهر يسير في خط هندسي مستقيم . انليس هذا

شأن الإنسانية في مجراها كثيرة التعاريج ولكنها تسير الى الامام اجالاً . واذا اعترض مجرى الماء حائل ، كاهضية مثلا ، فإنه لا يرتد الى الوراء ، بل يحاول الالتفاف بها ، واستئناف مجراه الاصلي . وكذلك الإنسانية فلها تسير وجهة الحضارة والارتقاء ، فاذا اعترضتها ازمة او عرقل سيرها حائل ، حاولت الالتفاف واستئناف سيرها بما فيها من مرونة . هي سنة الطبع ، ولن تجد لسنة الطبع تبديلاً . وما لاح لك انه عود الى الطبيعة في مجرى الإنسانية فهو من قبيل الخطأ التلويحي . خذ مثلاً لذلك المذاهب الشيوعية ، ومذاهب العراة ، في هذه الايام . فلها لا تعني العودة الى الطبيعة ، انما هي محاولة الطبيعة التغلب على العقبات الكأداء التي تعترض متيرها الاجمالي . ومن هذا القبيل تحديد النسل ، وحل البيظام العائلي ، والفوضوية والعاء النظم الادارية والجنائية . فهذه المذاهب او النزعات هي احد امرين ، اما انها امراض تنتاب الهبئة الاجتماعية ، او انها محاولات ترمي بها الطبيعة الى تطبيق اصولها على العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية . والتخلص من الازمات والعقبات . فلعللوب من ورائها سلامة الحياة ، وادراك السعادة التي يحلم بها الانسان مذ كان في المهدي طفلاً . فلا يعنى البشر باعتناق هذه المذاهب الرجوع الى ماضيه ، كلاً . بل التقدم والارتقاء . فهي ذرائع يتذرع بها للبرغ فلياته ومراميه ، التي بحق تحجبها طبيعة

فان الطبيعة في الانسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات ، وفي الجداد ، نزاعة الى الامام ، ولل التطور . وليس فيها رجوع . فان الماضي ، بحسب فلسفة برزغن ، يستمر في الحاضر ويزور المستقبل لكنه لا يتقلب راجعاً . فالكل في التيار ، بحسب تفكير هيرفيلطس ، والتيار الى الامام . هذا هو مجرى الطبيعة . اما الانقلاب رجوعاً فتحدّر للطبيعة ومنافاة لنواميسها

فالتوليد طبيعي كالنقليد . يراد بالنقليد الاحتفاظ بالطبيعة ، وبالتوليد التقدم بحسب نزوع الطبيعة . فالتوليد هو رجوع كالنوم والاجازة . والتوليد سمي كالشغل والنمو . واجتماع التوليد والنقليد بنوع الفرض الطبيعي . رحم الله هينل المفكر الالماني الشهير . فقد رأى ان النقائص تولد اليقينية . فاليقينية ، او القاتية ، عنده هي التقاء النقيضين . كالتقاء المادة والحياة . والتفكر والانشى ، والليل والنهار ، والسلب والايجاب في الجرى الكهربائي والمنطسي . فكما ان السكون طبيعي كذلك للحركة طبيعية . وكلاهما ضروري لاستكمال اغراض الحياة . وكما ان النوم طبيعي كذلك اليقظة طبيعية . وكما انموت الحريف طبيعي كذلك اجباه الربيع . فالتفصل بين النقيضين ، واجازة احدهما مع انكار الآخر ، كاجازة النوم دون اليقظة ، والجد دون الحياة ، والقطب الایجابي دون السلي ، فهو هدم للطبيعة واقناتت على ريبها وعلى نواميسها

فمن التزم الجود هلك هلاك من . فقع على ذروة شاهق يغررها الثلج والجليد . ومن التزم الاندفاع بكل تيار دون احتفاظ هلك هلاك من تدهور عن ذروة شاهق الى هوة عميقة فتحطم على الصخور . فنقطة اجتماع النقيضين هو محل حكمة الطبيعة واصابة من يفهمها